التحوّل المعرفيّ والاستعمال اللغويّ: عن الذهن والجسد والاستعارة

Cognitive transformation and linguistic use: On mind, body, and metaphor

حبيبة حلحاز*

جامعة 20 أوت 1955- سكيكدة (الجزائر) habibahelhaz@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/07/05 تاريخ القبول: 2024/09/02 تاريخ النشر: 2024/09/30

Abstract: Cognitive linguistics relies, in its study of human intelligence, on the experimental dimensions of the functioning of the human mind, and attempts to learn more about its capabilities, through the skill of using language, being a unique human aspect, which allows the use of metaphor as an intellectual mechanism that contributes to knowledge by creating similarities.

Its use in representing morality in Arab culture has given us insight into ways of understanding it, by exploiting sensory experiences, including parts of the body, which confirms the involvement of this body in creating its thoughts and understanding of the world around it.

Keywords: perceptions; metaphor; embodiment; representation; cognitive science.

الملخص:

تعتمد اللسانيات المعرفية في دراستها للذكاء الإنساني على الأبعاد التجريبية لاشتغال الذهن البشري، وتحاول التعرّف أكثر على قدراته من خلال مهارة استخدام اللغة بوصفها المظهر البشري الفريد، والذي يتيح استعمال الاستعارة كآلية فكرية تسهم في المعرفة عن طريق إبداع المشابهات. مشابهات لا تتعلق بالألفاظ بقدر ما هي تعالق بين مجالات تصورية، وقد منح شيوع استعمالها في البيئة اللغوية العربية تمثيلا لتصور منظومة الأخلاق و طرق فهمها باستثمار التجارب الحسية بما في ذلك أعضاء من الجسد،ما يدعم فكرة ضلوع هذا الجسد في صناعة فكر الإنسان وفهمه للعالم من حوله،بإثبات العلاقة التي تجمع بين إدراك الإنسان للأوضاع المختلفة والمجردات عن طريق الأنساق الذهنية– ومعظمها استعاري- وبين خبرته الجسدية فيما يسمى بالمعرفة المتجسّدة، وتشمل الخبرات المادية والمرتكزات الفيزيائية التي هي جزء من تجارب الجسد الحيّ.

الكلمات المفتاحية: التصورات؛ الاستعارة؛ التجسد؛ التمثيل؛ العلم المعرفي.

.

* حبيبة حلحاز.

مقدمة :

عجّل التحدي المعرفي الذي طال أسس الفلسفة الغربية في حصول انقلابات فكرية امتدّت تأثيراتها لتشمل الفكر الإنساني بكلّ فروعه العلمية، وهو الفكر الذي تربى على الفلسفة الأرسطية، واطمأنّ لمسلماتها لعقود، حتى أكسبه ذلك نوعا من التباهي بقدرات العقل لكن من زاوية محدودة، هي كونه يضمن تفرّد الإنسان عن باقي الكائنات الأخرى،ويتعالى عن كل ما يربطه بالتجارب المادية للجسد مع ما يحيط به، وفَرض استقلاليته عنها، فعملت هذه النظرة الاستعلائية على استفزاز عدد من الباحثين من الأجيال اللاحقة، والتي أخذت تشكّ بمرور الزمن بجدوى هذه الاستقلالية وحقيقتها، واستثمرت معطيات هذا الشك المشروع (والضروري) في مراجعة مختلف القضايا المركزية في الفلسفة الغربية، كالزمن والسببية والأخلاق والمعرفة وغيرها، وكذا إعادة النظر في العلاقة بين العقل (الذهن) والجسد، وإقرار دور هذا الأخير في صناعة التصورات المختلفة أي بلورة الفكر الإنساني ككلّ.

1. المراجعة المعرفية للفكر الغربي ونتائجها:

لطالما قصر التقليد الغربي نشاط الفكر في كونه تحفيزا شكليا بعيدا عن كل تفاعل إنساني مع محيط متغير، والإسهام في نقل الواقع نقلا موضوعيا عبر اللغة باعتبارها الوسيط التعبيري، وقضية نقل الواقع بشكل صحيح معناه إعطاء المعرفة الصحيحة عنه، فتأتي الألفاظ مطابقة للعالم في استقلال عن الكيفية التي يفهم بها الناس هذه اللغة ويعبرون بها (لايكوف و مارك، 2009، صفحة 190)عن تجاربهم ومعتقداتهم وثقافتهم، وتبرز معانيها من زاوية واحدة هو ارتباطها بالواقع المادي، وفي أحسن الحالات بأحد العوالم الممكنة تحت رقابة قيمتي الصدق والكذب، حفاظا على الموضوعية التي فرضها التقليد الغربي بكل تبعاتها السياسية والاجتماعية والثقافية،لهذاظهرت الموضوعية والصدق كوجهي العملة الواحدة، فالصادق موضوعي ومطلق،وهو ما عمّق الفجوة بين واقع الناس الذي يظهر أغلبه من خلال اللغة، في حين أن الصدق موجود في حياتنا ويأخذ حيّزا واسعا منها، وهو مهمّ وحيوي بالنسبة لنا، لأننا نؤسس أعمالنا سواء الفيزيائية والاجتماعية على ما نعتبره صادقا إنه يسمح لنا بأن ننشط في عالمنا، فمن خلاله مثلا يمكن معرفة مكان وجود باب المنزل، أو معرفة ما يؤكل ومالا يؤكل أو معرفة مسؤولياتنا، فهذه عينات تعطينا فكرة عن طبيعة ما هو صادق وشساعة نطاقه(لايكوف و مارك، الفلسفة في الجسد، 2016، صفحة 164)، والدور الذي يلعبه في حياتنا اليومية، لكن فكرة وجود صدق مطلق وموضوعي عدّت بحسب الطرح المعرفي فكرة خاطئة، بل إنها خطيرة على المستويين السياسي والاجتماعي لأنّها ستكون إقصائية بالنظر إلى كون الصدق دائما نسبيا بالنظر إلى نسق تصوري في معظمه محدّد من خلال الاستعارة، وخاضع للمناويل الثقافية المتباينة للبشر؛ وهو الأمر الذي أدى إلى تحوّل مهول في مسار البحث العلمي، إذ أثبتت نتائج إعادة النظر فيما كان قائما عدم صلاحية كثير من المفاهيم التقليدية لتفسير طبيعة

العلاقة بين الأنساق الذهنية – ومعظمها استعاري- التي بها يفهم الإنسان العالم ويتمثّله، وبين الخبرات المادية والمرتكزات الفيزيائية التي تعدّ جزءا من تجارب الجسد الحيّ .

وهي نتائج محورية تلخّصت في ثلاث نقاط كبرى: أولها أن الذهن متجسّد والثاني أن الفكر لا واع في غالبيته، إذ يعتبر اللاوعي بمثابة "ذلك الجزء الضخم من جبل الجليد الذي يمتد تحت السطح، تحت القمة المرئية أي الوعي، ويتكون من كل تلك العمليات الذهنية التي تبنين التجربة الواعية برمتها وتجعلها ممكنة بما في ذلك فهم اللغة واستعمالها"(لايكوف و مارك، الفلسفة في الجسد، 2016، صفحة 160) أي أن حياتنا لا ترتكز على الوعي وحده فقد أقيمت أبحاث تثبت أهمية اللاوعي في حياتنا، وثالثا أنّ الفكر كذلك استعاري في جزء كبير منه، وبذلك لم تعد الاستعارة تتعلق بالألفاظ ولكن بالتصورات أي أنّها تعتمد التعالقات بين المجالات الذهنية، وفهم تجربة من خلال أخرى، إذ أثبت الاشتغال على الاستعارة، أنّ الصور البلاغية ليست مجرد تنميقات لغوية أو حتى انزياحات بل هي جزء من الكلام اليومي الذي يؤثر على طرائق الإدراك والتفكير والفعل، ما جعل البحث المعرفي المعاصر يعتبر الإنسان كائنا استعاريا تنشط أغلب عملياته الذهنية على مستوى اللاوعي، واعتبر الذهن جهازا للتوليد الاستعاري عن طريق تشكيل التصورات والمفاهيم التي تكون فيها الثقافة ومختلف القيم الاجتماعية حاضرة حال التشكّل وليست مجرد غطاء تصوري، فالرؤية المعرفية تعتبر اللغة والفكر متفاعلين بمعنى التفكير باللغة وعبرها.

وهو ما أدى إلى فهم العقل من زاوية مغايرة لما كان سائدا أي باعتباره بنية مدمجة غير مستقلة استقلالا ذاتيا، تنشأ من طبيعة أدمغتنا ونقصد بذلك الآليات العصبية والمعرفية التي تمكّننا من الإدراك والحركة، وهي ذاتها من تشكّل أنسقتنا التصورية و صيغ تفكيرنا، فإذا كان العلم المعرفي ينظر في كيفية اشتغال الدماغ ليتعرّف الآليات المنتجة للمعرفة والتصرف في أهم مداخلها وهي اللغة الطبيعية، فإن اللسانيات المعرفية تتصور النشاط اللغوي جزءا من النشاط المعرفي عند الإنسان ولا تفصل بينهما لذلك فهي المجال المخوّل "لدراسة العلاقة بين اللغة البشرية والذهن والتجربة بما فيها الاجتماعي والمادي البيئي" (الزناد، 2011، صفحة 21)، واللغة وليدة اشتغال وتفاعل هذه العناصر ووسيلة تصاغ عبرها مضامينها لأنها تضم أنساقا معرفية تؤهلنا للتعامل مع مختلف الخبرات الجديدة، وتخزين المعلومات حول الخبرات الماضية، في إطار سيرورة معالجة المعلومات التي يقوم بها جهاز معقد كالذهن البشري، فلطالما تساءل الباحثون ما علاقة الواقع المادي باللغة؟ بمعنى كيف تنقل لنا اللغة تجاربنا مع العالم الخارجي؟، فتناول اللغة في حركيتها واشتغالها يمثل مدخلا خصبا لفهم الظاهرة اللغوية الحاملة للمعرفة من حيث طبيعتها وتغيرها خلال الزمن، أي أنها تنظر في الأساس الذهني لفهم وإنتاج اللغة، إنها تصف وتفسر البنية الإدراكية الداخلية ،وقد جاء هذا المجال العلمي مناهضا،وحينها هيمن الاتجاه السلوكي على المعرفة النفسية، فأعمل آلياته في أغلب الروافد العلمية وعلى رأسها اللسانيات، فبعد تبيّن قصور النظرة

النفسية السلوكية عن استيعاب التطورات الحاصلة في مجال البحث والمتعلقة بحياة الإنسان المفكر وظهور بعض الاختلالات والفراغات في طريقتها وإقصائها الحياة الذهنية والوعي، أدى إلى التخلي التدريجي عنها في محاولة للبحث عن آليات علمية ومنهجية جديدة لتحليل الظواهر البشرية واللغة على رأسها، فحصل الانفصال عن المنهج السلوكي في دراسة اللغة وهنا خروج باللغة من معامل علم النفس السلوكي، إلى غرفة عمليات الأعصاب وأطباء علم تشريح الدماغ(عطية سليمان، 2019، صفحة 157)، وظهور علم النفس المعرفي بالإضافة إلى اختصاصات أخرى كيّفت مباحثها مع نتائج الثورة المعرفية منها الذكاء الاصطناعي والفلسفة وعلم الأعصاب.

2. الأسس المفاهيمية لنظرية المعرفة المتجسدة:

يتفاعل الذهن مع تجارب الجسد ومحيطه، فالتفكير الإنساني ككل يتأصل في التجارب الجسدية ممثّلة في الأنسقة الحسيّة والحركية، ويترسخ في تراكماتها المتنوعة حيث "يستوجب تفاعل الأجساد مع محيط العالم إقامة نماذج عن التجربة على شكل خطاطات.. تمثل بنيات مجردة للصور الكلية المشتملة على أجزاء منتظمة ضمن كل متجانس (العاقد، 2006، صفحة 39)، ولا يتشكل التفكير والبنية التصورية إلا بواسطة تفاعل أدمغتنا مع المعرفة الناتجة عن تجارب الجسد وصيغ اشتغالنا في العالم ولذلك، فالعقل والتصورات ليست مستقلة تماما عنه فالنسق التصوري للفكر البشري من أهم سماته أنه استعاري في غالبيته و متجسد" وليس متجسدا فحسب، بل هو متجسد بالطريقة التي تجعل أنسقتنا التصورية تعتمد بشكل واسع على مشاعات ومشتركات أجسادنا والبيئات التي تعيش فيها"(لايكوف و مارك، الفلسفة في الجسد، 2016، صفحة 40)، وإذا كان العلم المعرفي ينظر في كيفية اشتغال الدماغ ليتعرّف الآليات المنتجة للمعرفة والتصرف في أهم مداخلها وهي اللغة الطبيعية، فإن اللسانيات المعرفية تتصور النشاط اللغوي جزءا من النشاط المعرفي عند الإنسان ولا تفصل بينهما، بحيث يرتكز هذا النشاط حال استعمال الإنسان للغة على جملة من العمليات من أهمها عملية التمثيل، الذي يعدّ دليلا على وجود بنية تصورية بين الواقع الذهني (اللغة) والواقع الخارجي لأن العلاقة بينهما لا يمكن أن تكون مباشرة، وعدم قيام هذه العلاقة المباشرة هو الذي يتيح إمكان افتراض البنية التصورية لأن بين الأمرين تمثيلا ،فهناك معلومات نلتقطها إما عن طريق اللغة أو عن طريق أنسقة معرفية أخرى غير لغوية، تقيم هذه المعلومات بنية تصورية وفق أساس لغوي ونسق إدراكي، وهو ما يفرض علينا افتراض مستوى تمثيلي عام، يعمل عمل الوسيط أو الرابط أو الناقل، يخص الأنسقة البشرية سواء اللغوية أو غير اللغوية، وتشكّل البنية التصورية على هذا النحو يجعلنا في غنى عن القول بمستوى دلالي خالص يمثل فيه للبنيات اللغوية لأن النظرية الدلالية هي جزء من النظرية العامة للبنية التصورية، وأغلب المعارف غير اللغوية مصدرها تجارب الإنسان المختلفة وهو ما يعني أن العلاقات الدلالية في نهاية المطاف تصاغ بالطريقة التي ينظّم بها الذهن هذه التجارب ،أي أن التصورات المتعلقة بما هو غير لغوي كالأنسقة الحركية motor أو

النظام البصريvisual، تتشكّل وقف آليات" تزودنا بتحليل يكاد يكون مباشرا للعلاقات الدلالية المذكورة "(غاليم، 1987، صفحة 92)

أظهرت نتائج الأبحاث المعرفية وجود طرائق ذهنية تتأسّس باعتبارها مداخل لحصول الإدراك ولإنتاج وتوليد المعاني في اللغة، والتي يمكن للبشر استغلال نشاطها منذ الصغر، كما تساعد في تحليل آليات بناء المفاهيم ومعرفة مختلف الكيفيات التي تترابط من خلالها فضاءات ذهنية mental spaces لإنتاج تصوّر ما، ومن أشهر هذه الطرائق التي صارت بمثابة نماذج تستعمل كآليات تحليلية ما يعرف بنظرية المزج (الدمج) blending theory، وتعرف بكونها "ملكة حركية مرنة عاملة زمن التفكير (آن قولية) بصفة غير واعية" تربط استعاريا بين شبكات مترامية من الفضاءات الذهنية عن طريق عمليات استدلالية خلفية باطنة في أعماق اللاوعي تظهر نتائجها على مستوى الوعي بسيطة واضحة ولكنّها في الحقيقة ناتجة عن عمليات ذهنية معقدة جدا، وتنشأ عن هذه القدرة الذهنية عديد الاستعارات الأولية،فحالات الدمج الأولى المبكرة في التجربة اليومية تقود إلى تكوين آلي لمئات من الاستعارات الأولية التي تقرن التجربة الذاتية والحكم بالتجربة الحسية الحركية فحتى الأطفال يقومون بدمج الأشياء وإخراج بنى جديدة تسعفهم في التعبير عن الأوضاع المستجدة في حياتهم وبهذا يتعلمون، وتتوسّع معرفتهم بما يحيط بهم، وقد تحدث جونسون مثلا أن التجربة الذاتية للعاطفة عند الأطفال تقترن نمطيا بالتجربة الحسية للدفء الذي يشعر به من يرعى، وفي مرحلة الدمج تتأسس ترابطات بين مجال العاطفة والتجربة الحسية للدف، تتجلى فيما بعد في شكل استعارات تصورية من قبيل ابتسامة دافئة أو صديق قريب (لايكوف و مارك، الفلسفة في الجسد، 2016، صفحة 90)، ففي كل عملية إدماج يقع إسقاط جزئي لبنية مستمدة من فضاءيين مدخليين على فضاء ثالث يكون مستقلا يدعى الفضاء المدمج أو المزيج تكون له بنيته الخاصة و التي تستمد مادتها الخام من الفضاءين الأولين، بالإضافة إلى فضاء رابع يدعى الفضاء النوعي يحوي الروابط التصورية بين الفضاءين الأولين، غير أن الفضاء المدمج يمثل أغنى فضاء في النموذج إذ يعمل على اشتقاق بنية جزئية من الفضاءين المدخليين مضافة إليهما بنية تخصه لم يقع إسقاطها من قبل"(لكراري، 2004، صفحة 433)، ولا تكون خطاطة هذه الملكة نمطية بل إنها تتكيّف مع المفاهيم الاستعارية البسيطة والمعقدة فتتولد عديد الفضاءات المدخلية كما يمكن أن ينتج عن ذلك أكثر من بنية مدمجة أو مزيجة مستقلة.

3. التفكير الاستعاري من المنظار المعرفي:

الاستعارة وفق الفهم المعرفي ليس عنصرا يضاف إلى ما هو حقيقي أو يزيّنه، بحيث يمكن الاستعاضة عنه في أي لحظة، بل إنّ تشييد الحقائق والوقائع يعتمد في جانب واسع منه على الاستعارة بشكل ضروري ولا مفرّ منه، وإنّ – حسب إبراهيم السامرائي- "إمعان بالنظر في المفاهيم المجازية عامة يعرفنا بمدى واقعيتها... فالوضع الأول غير معروف، والجهل

بالوضع يقودنا إلى الجهل بالاستعمال الأول، ويقودنا أيضا إلى الجهل بمفهوم النقل ...ومفهوم الاستعمال مفهوم عام تخضع له نصوص الحقيقة والمجاز بدرجة واحدة "(السامرائي، 2015، صفحة 193)،فلا مناص إذن من استعمال الاستعارة بل إنّ النسق التصوري للبشر –حسب اللسانيات المعرفية– في غالبه ذو طبيعة استعارية، فأفكارنا وسلوكاتنا اليومية تعكس فهمنا الاستعاري لتجاربنا المختلفة في الحياة، وبذلك يتعذّر فهم الاستعارة بعيدا عن أساسها التجريبي.

يعتبر الطرح المعرفي التصورات الاستعارية بنيات معرفية تؤطّر" الفهم الإنساني وتؤثر في تشييد المعنى وصياغة الاستدلالات العقلية"(العاقد، 2006، صفحة 44)، ما يجعل المشابهة واقعة في التصورات وليس في الألفاظ لأن الاستعارة تمكّننا من فهم تجربة من خلال تجربة أخرى، ويتمّ ذلك بطرق ومسالك ذهنية مختلفة ومتشعبة ما جعل مفهوم المشابهة يتّسع إلى الترابط بين المجالات. فالمشابهة في أصلها مفهوم تناظري لأنّه يفضي بأن لا يكون هناك تمايز بين المصدر (المستعار منه) والهدف(المستعار له)، فيكون كلّ منهما يعبّر عن الآخر وهو ما لا يحصل في كثير من الحالات الاستعارية بنفس الطريقة وإذا كانت الاستعارات تعبر فقط عن التشابهات، فإنه ينبغي أن تكون متناظرة، ولذلك لا ينبغي أن يوجد أي تمايز بين المصدر والهدف، سيكون المصدر معبّرا عن الهدف مثلما هو الهدف عن المصدر، أي أنه في مثل هذه الحالة يمكن للطرفين أن يتبادلا موقعهما "وتبادل الموقعين يحصل حينما يمتلك الموضوعان نفس المقومات أو أن المتلفظ أراد أن يجعلهما متساويين"(مفتاح، 1990، صفحة 51)، وهذا النوع من التشابه نبّه إليه بعض البلاغيين في قولهم: بدا الصبح كغرة الفرس وبدت غرة الفرس كالصبح، وكما في المثال الأرسطي الشهير قبله، نسبة المساء للشيخوخة كنسبة الشيخوخة للمساء، في حين ليس هذا ما يحصل في عدد هائل من الحالات، فالألفاظ التي تصف مظاهر الرحلات في استعارة " الحب رحلة" مثلا يمكن استخدامها لوصف الحب، ولكن العكس غير ممكن، فعبارات الحب لا تصف تصورات الرحلة الموافقة. فالسيارات مثلا لا يحال عليها بوصفها علاقات وهذا يشمل الحالات التواضعية والحالات الجديدة فنحن نصيغ صورا من المجال المصدر في مناقشة المجال الهدف، وليس العكس "وينسحب هذا اللاتناظر على أشكال تفكيرنا، فنحن نستورد بنية استنتاجية تتعلق بالرحلات لبناء تصور الحب، ولكننا لا نستعمل أشكال تفكيرنا في الحب لبناء تصورنا وتفكيرنا في الرحلات "(لايكوف و مارك، الفلسفة في الجسد، 2016، صفحة 189)فهذه التصورات تؤسس لما يدركه المتكلمون عمّا حولهم ولكيفية تعاملهم مع العالم، والدلالة اللغوية الناتجة ستكون لامحالة صياغة لمضمون تصوري بوساطة اللغة، ممّا يجعل الاستعارة تتجاوز كونها حلية أسلوبية تطرّز النصوص، وتجعلنا نفتتن بها، لتتحوّل إلى قيمة ثقافية متداولة ضمن كيان التجربة الإنسانية، ومسهمة في المعرفة، وبالتالي فالمشابهة فيها لا تقوم بشكل قبلي وفي استقلال عن تجربة الإنسان واحتكاكه بالعالم الخارجي بل هي تتشكل وفقها وتتأثر بها بكل سياقاتها الحضارية والاجتماعية والنفسية والجسدية .

4. التصور الاستعاري لتجربة الأخلاق عند العرب:

يصرّ الباحثون في مجال اللسانيات المعرفية على أن الإنسان يدرك الأخلاق ويتصورها استعاريا من خلال التجربة الحسية له و ما اكتسبه من واقعه وسلوكه وتعاملاته، إذ يخوّله تفكيره الاستعاري في كثير من الأحيان استخدام بعض الاستنتاجات المؤسسة على الواقع الحسي الحركي لبناء تصورات الأوضاع المجردة. و هذه هي الآلية التي يتجسد بها التفكير المجرد (لايكوف و مارك، الفلسفة في الجسد، 2016، صفحة 721). وبما أننا نتحدث عن الأخلاق وهي من القيم المجردة عندنا نحن البشر، فإن الطرح المعرفي يعتبر كل تصوراتنا عن الأخلاق وما هو أخلاقي باعتبارها مؤسسة استعاريا، بالاعتماد على معطيات أجسادنا وتفاعلنا الاجتماعي، ولا يمكن في الغالب إلا تصورها بوساطة التفكير الاستعاري، ومعنى ذلك أن تصور الإنسان مشكّل وفق مجموعة من الترابطات الذهنية، التي تعكس تنشيطا دلاليا يجعلها تختلف وتتنوع باختلاف الاستعارة المستعملة في تحديد المفهوم الأخلاقي الوارد ضمن موقف وظرف اجتماعي ما، وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على عدم وجود أخلاق خالصة متعالية عن الفهم التجريبي المادي " بل أننا نفهم الأخلاق من خلال الاستعارات التي تقوم على التجربة المادية، كذلك لا يمكن القول بالعقل الأخلاقي الخالص (كما عند كانط) لأن المفاهيم الأخلاقية استعارية الجوهر" (الحراصي، 2008، صفحة 161)، وبتحليل بعض الأمثلة الاستعارية الرائجة في الاستعمال العربي التراثي نقف على آليات التمثيل الذهني لتجربة الأخلاق في الثقافة العربية:

– تقول إحدى نساء العرب موصية ابنها:"إياك والبخل بمالك والجود بدينك، ومن جمع الحلم والسخاء فقد استجاد الحلة و الفجور أقبح حلة وأبقى عارا"(ابن طيفور الخراساني، 1993، صفحة 84)

–وسأل الحجاج ابنة عبد الله بن جعفر فقال لها : بأبي أنت وأمي مما تبكين ؟ قالت:"من شرف اتضع ومن ضعة شرفت"(ابن طيفور الخراساني، 1993، صفحة 151)

– تقول ابنة عبد الله بن جعفر الطيّار:" فوالله لقد ألبست قومي عارا لا يغسل درنه بغسل"(ابن طيفور الخراساني، 1993، صفحة 153)

– قالت إحداهنّ:" إنّ لبني عبد مناف أخلاقا طاهرة"(ابن طيفور الخراساني، 1993، صفحة 97)

– قال الشاعر: سَيكفيكَهُ إمَّا يدٌ مُقفَلةٌ وإمَّا يدٌ مبسوطَة ببَنان(ابن طيفور الخراساني، 1993، صفحة 289)

تعكس هذه الأمثلة الاستعارية إحدى زاويا تصوّر العرب لمفهوم الأخلاق حسَنها وقبيحها من خلال بعض من مظاهرها كالشرف والعار، الجود والبخل والحِلم، وتحيل التعبيرات الاستعارية على عقد ترابطات بين فضاءات تصوّرية متنوعة انصهرت جميعها في معامل الذهن وأفرزت بنية جديدة تعكس فهم وإدراك مقولة الأخلاق ضمن مجالها الثقافي والاجتماعي، وكان ذلك بالاستعانة ببعض الموارد الماديّة ومظاهر التفاعل بين الجسد والعالم، فالأخلاق الحسنة في عرفنا

اللغوي توصف بالطهارة، فنقول" أخلاق طاهرة" وهي من الاستعارات الأولي التي تأسّست على تجربتنا الحسية بالأشياء النظيفة وهي الجميلة التي لا يعتريها نجس والمستحسنة في مقابل المتسخة وهي القبيحة والمستهجنة، ووجود مفهوم الطهارة الجسدية في وعينا الديني، وهي من الاستعارات القاعدية التي يتفرّع عنها عدد كبير من النسخ الاستعارية ومنها هاته الواردة في الأمثلة والتي نحن بصدد النظر فيها، ويمكن اختصارها من خلال التفريع الشبكي التالي :

الشكل 01: نموذج شبكة استعارية لمقولة الأخلاق

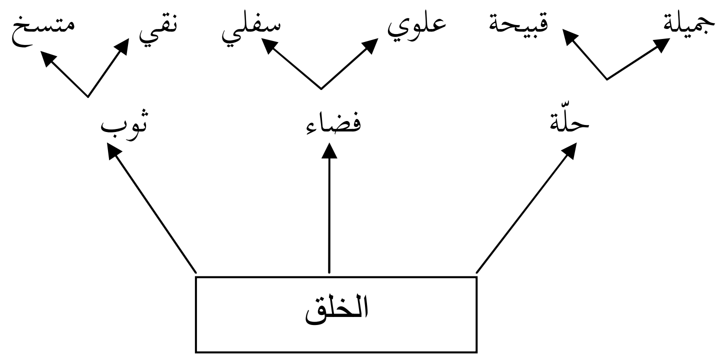

ارتبط الخُلق بتجارب الحسّ ومعنى ذلك أن تصور الإنسان مشكّل وفق مجموعة من الترابطات الذهنية، فنحن اعتمادا على خبرتنا البصرية في بيان الفرق بين الأشياء وقيمتها نربط بين الحسن وهو في أصله صورة بصرية والخلق الحميد، والقبح وهو أيضا صورة بصرية مناقضة والخلق السيّء، فتعمل مثل هذه التصورات المادية على "بنينة التصورات المجردة بناء على ترابطات نسقية داخل تجربتنا، ذلك أنّ التصورات المجردة تحتاج إلى عماد مادي يرسخها تجريبيا"(لايكوف و مارك، الفلسفة في الجسد، 2016، صفحة 12)، فتجربة العرب القائمة على معرفتهم بالمظاهر الجميلة ومختلف الحُلل والثياب ووظائفها وما تؤديه في ثقافتهم بالإضافة إلى قيمتها المادية أسّست لتصور الخلق الحسن منه والقبيح ، فقول المرأة " فمن جمع الحلم والسخاء فقد استجاد الحلة" بمعنى أنّ هذين الخلقين زادا في زينة وجمال وجودة ما تحلّى به هذا الرجل، فيدرك ذلك من ذات المسلك التصوري الذي يستحسن بالبصر من ارتدى زيّا جميلا موشحا غالي الثمن، ولهذا صار "الفجور أقبح حلة "وهو خلق سيء يعاب عليه المرء يرتبط بما لا يستحسن مما يرى على الشخص من رديء الثوب وما شابه، وحقيقة ما أو صلنا لمثل هذا الفهم سببه إسقاط مجال التجربة البصرية للزينة على القيم الأخلاقية المجردة ومظاهرها المتمثلة في الحلم والسخاء من جهة الاستحسان والجمال المعنوي، والفجور من جهة الاستهجان والقبح المعنوي، وهو ما يتقاطع مع التصور الثاني المتمثل في اعتبار العار وما ألحقته هذه المرأة بأهلها من السمعة السّيئة كمن أسهم في اتساخ ثوب يصعب غسله في قولها" لقد ألبست قومي عارا لا يغسل درنه بغسل"، فاعتبار الأخلاق الحسنة من حلم وسخاء أثوابا وحللا جميلة ولائقة يجعل لسوء الخلق الذي اتصفت به هذه المرأة النادمة أثرا سلبيا هو ذاك الثوب المتسخ والقذر

الذي ألبسته قومها، وهو بحسب تعبيرها شديد الدرن لدرجة أنه يصعب غسله أي أنّ ما ارتكبته من عار كان كبيرا، وإذا أردنا تحليل كيف شكّل ذهنها مثل هذه التصوّر، سنجد أنّها اعتمدت على استعارة "الكبير والعظيم مترسخ وقويّ "ويصعب مقاومته أو إزالته، عكس الصغير، ولولا الخبرة الحسية بمجال الغسيل وصعوبته فيما تعلق ببعض المواد التي تصيب الثوب لما تأسّست مثل هذه الاستعارات لأنّ اللغة وسيط يصوغ بنية جديدة لا هي تعكس العالم الواقعي كما هو ولا هي تستطيع التعبير عن بقايا السمعة السيئة الناجمة عن سوء الأخلاق وهي من المجردات دون اللجوء إلى المرتكز الفيزيائي، ولكن قيام الذهن بتمثيل العالم المسقط الذي هو الوسيط عن طريق الاستعارة، وما ضمن هذا التناسب في مسالك الإسقاط بين التجربتين الحسية والمجردة هو الانتماء الاجتماعي والثقافي الذي ييّسر الفهم والتناسق وبمثل هذه التعالقات تتشكل الشبكات الاستعارية لمقولة ما، فانطلاقا من توسيع النشاط الذهني والذي يحيل على "اشتغال للنسق المعرفي الإنساني ويتجسّد هذا الاشتغال من خلال عمليات مختلفة منها الانتقاء والتبسيط والاستدلال على المعارف التي سبق تخزينها في الذاكرة خاصة" (بلحاج، 2009، صفحة 103)، لأنّ عملية الربط بين المجالات وفهم تجربة من خلال أخرى تقتضي مثل هذا النشاط الذهني.

كما ورد في استعارة أخرى ضمن مقولة الأخلاق قول امرأة حين سئلت ممّا تبكين فردّت "من شرف اتضع ومن ضعة شرفت "، وهي استعارة تتأسّس على زاويتين: الإدراك الفضائي لأجسادنا من جهة "أعلى/أسفل"، وإدراك الحجم وبروزه من زاوية أخرى، وتحيل مفردة اتضع المشتقة من الوضاعة وهي ذات أصل حسي يرتكز على تقدير قيمة ومنزلة المرء انطلاقا من تجربة الحجم والذي يرتبط بطريقة وثيقة بتصور الاتجاه أعلى لأنّ الإنسان يرى حسيا أنّه كلما كبر حجم الشيء ارتفع لأنّه يملأ أكبر حيّز في الفضاء وكلّما صغر انخفض، وبهذه السلسلة من الارتباطات الذهنية تمثّلت المرأة ظاهرة اجتماعية سادت على غير المألوف تمثّلت في بروز وتقدّم الضعة بارتفاع مكانة من يتصفون بها في المجتمع وهي في أصلها نزول عن الشرف والأخلاق السامية التي ترسّخت في الثقافة الإنسانية وخاصة العربية في الاتجاه أعلى، في حين تراجع الشرف ومن يتصفون به وهو الأمر الذي سبّب بكاءها في إشارة إلى التحوّل الأخلاقي السلبي داخل المجتمع.

وبالعودة إلى المثال الأول في استعارة الدين مال والمتجلية في قولها: "إيّاك والبخل بمالك والجود بدينك" نلفي فضاءا تصوريا جديدا، أبانت عنه استعارات فرعية في التعبير ويمكن أن نحلّل النسق ككلّ فيما يلي:

الاستعارة الأولية: الدين مال

الحكم الذاتي: الأهمية والقيمة المرتفعة

المجال الحسي الحركي: التعامل المالي أو الإنفاق

مثال:الجود بالدين والبخل بالمال

التجربة الأولية: النقصان في الدين وقلّته هو استغناء عن العمل بتعاليمه، وإمساك المال هو تفضيله رغبة وحبا فيه وهو من مظاهر الدنيا.

فمن يترك الالتزام بتعاليم الدين ويتركها لغيره ولا يأخذ منها بحظ وافر يكثر خطأه وانحرافه لأنّ الفراغ الذي لم يملأه الدين بسبب الجود الاستعاري به سيشغله حبّ الدنيا والتمسّك بها والمال أبرز مظاهرها فهي معادلة صوّرتها المرأة استعاريا حين أرادت تقديم نصيحة لابنها تعينه على السير القويم في حياته، وقد ساعدت الصياغة اللغوية التي هي نتيجة عن المسلك الذهني لها في توسيع معنى الجود والبخل عن معانيهما النووية إلى معاني جديدة، فالمعنى المركزي يتم تكييفه بشكل ملائم في الصياغة اللغوية الوارد فيها، ويمكن إثر ذلك الاستدلال على تأويلات تؤطّر الفهم الجديد المنبثق عن النواة الدلالية الأولى في إطار سياق ثقافي معيّن، فحاصل استعارة الدين مال، هو مزج تصوري وهو جوهر العملية الذهنية فيما يتعلق بإنتاج اللغة وكذا تفسيرها، فقد توفّر فضاءان مدخليان هما فضاء الدين بمفهومه المجرد وفضاء المال القائم على تجربة القيمة والغلاء أو الثمن المرتفع فاقتضى المزج بين الفضاءين فضاء نوعيا مزيجا يرفع من قيمة الدين، ويغيّر من طبيعة المال، فيتشكّل التصوّر المذكور على أساس ترابط استدلالي ناتج عن هذه العملية الذهنية.وأمّا المثال الشعري التالي فهو يعكس استثمار فكر الإنسان العربي لأعضاء من جسده ليجسّد خلق الجود والبخل أيضا إذ يقول الشاعر:

سيَكفيكَهُ إمَّا يدٌ مُقفَلَةٌ وإمَّا يدٌ مبسُوطةٌ ببَنَان(ابن طيفور الخراساني، 1993، صفحة 289)

تعكس هذه الاستعارة ما أقرّته الأبحاث المعرفية من أنّ النسق التصوري للفكر البشري من أهم سماته أنه استعاري في معظمه ومتجسد" وليس متجسدا فحسب، بل هو متجسد بالطريقة التي تجعل أنسقتنا التصورية تعتمد بشكل واسع على مشاعات ومشتركات أجسادنا والبيئات التي تعيش فيها"(لايكوف و مارك، الفلسفة في الجسد، 2016، صفحة 40)، ولهذا يعتبر المعرفيون البنية التصورية أعمق من البنية الدلالية، ففي ثقافتنا تحيل العبارة الاستعارية لليد المبسوطة على صفة الجود وكثرة البذل فيما تحمل عبارة اليد المقفلة على نقيض ذلك وهو البخل و قلّة البذل، وفي مستوى أعمق هي نسخة استعارية لتصور ربط بين حركة اليد المبسوطة التي تظهر ما تحمله ولا تخفيه وتقدّمه بهدف العطاء ونقيضها المقفلة التي تخفي ما تملكه حتى لا تبذله، فهما حركتان متجسدتان أي مؤسستان في أذهاننا باعتبار تجربتنا الجسدية، ما سمح بحصول ترابط تصوري بين مجال الفتح والغلق وهما موردان حسيّان دلّا على الجود والبخل وهما مفهومان مجرّدان، مما يعني أن معنى الكلمات في العادةمن منظور معرفي " ليس مسألة دلالية ، وليس مسألة تداولية، وإنما هو مسألة موسوعية، أي أنه ينبثق من الترابط التراكمي للتجربة والمفهمة السياق والثقافة "(محسب، 2017، صفحة 203)، فتتشكّل مناويل معرفية بين الأفراد والجماعات داخل الثقافة الواحدة ما يجعل هذه المناويل تتواتر في كلامهم وتصبح مصدرا للتوليد

الاستعاري، وهو ما اصطلح عليه اللسانيون بالمنوال المعرفي الأعلى، وأقروا بأن السمة المميزة لهذا المنوال هي سمة التواتر، لأنه يشكل بتواتره نقطة مرجعية معرفية cognitive reference point لموقولاتنا وأنساقنا التصنيفية (البوعمراني، 2004، صفحة 31)، ويمكن أن يكون كيانا مكونا من خاصيات نموذجية ومتعددة، قد لا تجتمع في قيمة بعينها، بمعنى أن المنوال هو تمثيل ذهني ولا يمتلك بالضرورة ممثلا واقعيا أو معبرا واقعيا، وبالنظر في المثال الاستعاري لتصور الجود والبخل عند العرب، تبيّن أنه اتخذ عضو من الجسد وهو اليد كأفضل ممثل لإدراكها وهو أمر متداول في كلام العرب إذ جرى على كلامهم ربط اليد والذراع إذا كانت مبسوطة أو مغلولة بالبذل والتقتير، وود كذلك في كتاب الله عزّ وجلّ في أكثر من موضع منها قوله تعالى في الآية السادسة والستين من سورة المائدة" وقالت اليَهودُ يدُ الله مغلولة، غلَّت أيديهم ولُعنُوا بما قَالوا بل يَداه مبسُوطَتَان يُنفق كيفَ يشاء"(القرآن الكريم برواية ورش عن نافع)، وكلامه عزّ وجلّ جاء بلسان عربي مبين، فممّا اعتادت العرب عليه في كلامها ربط كلّ خلق بأحد الأعضاء فنجد استعمال أعضاء كاليد والكف للجود والبخل والأرجل حين ترتجف للجبن والخوف فيما يرتبط القلب والصدر بالشجاعة والإقدام والأنف والرأس للكبرياء والأنفة وغيرها، فهي نماذج لمقولة الأخلاق تحيل على كيفية إدراك العربي للمنظومة الأخلاقية من خلال احتوائها في أعضاء الجسد ولمثل هذا الاستعمال يعتبر المعرفيون الاحتواء الفيزيائيphysical containment أهم ما يميز هذه التجربة، وجسدنا هو النموذج الأمثل للوعاء لأنه الوعاء الذي يحوي أوعية فرعية، فالعروق أوعية تنقل الدم والمعدة وعاء للطعام "وإضافة إلى ذلك فنحن نتعامل جسديا مع الأشياء باعتبارها أوعية وتفاعلنا مع محيطنا يكشف عن هذه الأوعية التي تحكم تجربتنا الحياتية ...ونحن نعيش دائما داخل فضاء وخارج آخر "(لايكوف و مارك، الفلسفة في الجسد، 2016، صفحة 78)، فنحن نحتاج الجسد لنفكر استعاريا.

5. الخاتمة:

يشكّل بحث الذكاء البشري وسيروراته المختلفة من خلال استخدام مهارة اللغة شغف العلوم المعرفية وعلى رأسها اللسانيات، وهي تعتمد في بحثها هذا على الأبعاد التجريبية لاشتغال الذهن البشري وتحاول التعرّف أكثر على قدراته من خلال مهارة استخدام اللغة بوصفها المظهر البشري المتفرد، الذي يتيح وضع المعرفة ضمن سياقات مختلفة وإبداع المشابهات المتجدد بوساطة التفكير الاستعاري الذي هو جزء من الطبيعة الفطرية لاشتغال هذا الذهن، وقد تركّز جهدنا في هذا المقال على محاولة استفزاز عيّنة نماذج من البيئة اللغوية العربية التراثيةعن طريق آليات تحليل محدثّة نتجت عن فهم مغاير للغة والاستعارة بشكل عام، وهي آليات وفرّتها المقاربة المعرفية بأساسها المفاهيمي والإجرائي، فقد أظهر الاستعمال اللساني الأنساق الاستعارية في ترابط مع الموارد الحسية والحركية التي يوفرها جسد الإنسان حين يتفاعل مع ما يحيط به ويؤسس إثر ذلك معرفة عنه، وقد خلصنا إثر ذلك إلى بعض النقاط الأساسة وهي:

– إنّ مقاربة نماذج من المنجز اللغوي العربي التراثي كفيل بأن يكشف عن طرائق استدلال الذهن العربي وقدراته المختلفة وهو يشيّد فكره ويطوّره على مرّ السنين لأنّ كلّ هذا الرصيد الإبداعي على المستوى اللغوي (على الأقل) من شعر ونثر، لابدّ أن يكون خزّانا لطاقة معرفية هي التي تحرّك المنظومة الأخلاقية في المجتمع المسلم؛كونها تعبّر عن كيفية تصوّر العرب لبعض صور الأخلاق وهي من المجردات التي اعتاد الذهن على إدراكها بالتأسيس على تجاربه الحسية الجسدية نحو فهم الخلق الجيّد كثوب نظيف وجميل والخلق السيء كقذارة وكذا تصوّر الدين مال ، وربط تجربة الإقفال باليد من ناحية بذلها أو بخلها، أي إنّ الإدراك تحقق من زاوية حركة جسدية، فكلّه استثمار للفيزيائي لفهم المجرّد لأنّه محكوم بإرغامات تركيبته البيولوجية المتفاعلة مع الكون باعتباره كائنا عصبيا يلعب النسق العصبي لديه دورا مركزيا في بناء التصور.

– تتشكّل التصورات الاستعارية عن طريق الاستدلال الذهني بإقامة تماثلات بين العالمين الواقعي والمسقط، فالبشر على نحو فطري وعفوي يلجؤون إلى اتباع المسلك الاستعاري للتعبير عن أفكار لا تتسع لها رموز اللغة المحدودة، ومسلك الاستدلال الاستعاري يتسع لكلّ صور التفكير البشري، فالاستعارات في الخطاب هي الأشياء التي تعمل على لفت انتباهنا نحو الأوضاع الجوهرية والأشياء ذات الأهمية في رسائل المتكلمين.

– ثمّ إنّ ربط التعبير الاستعاري بالأبعاد التداولية ومنها البعد الديني والاجتماعي يجعل للدلالة بنية مرجعية لكنها غير نمطية أو متجانسة، لأنها تتحرّرت من قيد المعجم لتصبح كل استعارة بمثابة مدخل لنظم تصورية فسيحة يأخذ بعضها من بعض عن طريق شبكات ترابطية من العلاقات الاستعارية ما يجعل المعنى موسوعيا ولا يتأسس بشكل قبلي بل هو قابل للتشكّل وإعادة التشكّل كلّما توفرت ظروف الإنتاج وسياقاتها.

6. مراجع البحث:

– القرآن الكريم برواية ورش عن نافع ,ا .ا .(n.d.) .القرآن الكريم برواية ورش عن نافع، سورة المائدة .*الاية 64*

1. أحمد العاقد. (2006). *المعرفة والتواصل، عن آليات النسق الاستعاري*. الرباط: دار أبي رقراق.

2. أحمد بن طيفور الخراساني. (1993). *بلاغات النساء*. (محمد طاهر الزين، المترجمون) الكويت: مكتبة سندس.

3. أحمد عطية سليمان. (2019). *اللسانيات العصبية، اللغة في الدماغ (رمزية عصبية عرفانية)*. القاهرة: الأكادمية الحديثة للكتاب الجامعي.

4. الأزهر الزناد. (2011). *النص والخطاب، مباحث لسانية عرفنية* (المجلد 1). صفاقص، تونس: دار محمد علي للنشر.

5. إبراهيم السامرائي ,م .ص .(2015) .*المجاز في البلاغة العربية* .(Vol. 1)بيروت :دار ابن كثير.

6. إبراهيم اليازجي :(1985). نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد. (المجلد3).لبنان: مكتبة لبنان.

7. جورج لايكوف، و جونسون مارك. (2009). *الاستعارات التي نحيا بها* (المجلد 2). (عبد المجيد جحفة، المترجمون) المغرب: دار توبقال للنشر.

8.جورج لايكوف، و جونسون مارك. (2016). *الفلسفة في الجسد، الذهن المتجسد وتحديه للفكر الغربي* (المجلد 1). (عبد المجيد جحفة، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.

9. عبد الباسط لكراري. (2004). *دينامية الخيال: مفاهيم وآليات الاشتغال، الرباط* (المجلد 1). المغرب: منشورات اتحاد كتاب.

10. عبد الكريم بلحاج. (2009). *المدخل إلى علم النفس المعرفي* (المجلد 1). الرباط: دار أبي رقراق.

11.عبد الله الحراصي. (2008). *دراسات في الاستعارة المفهومية* (المجلد الإصدار 3). عمان: مؤسسة عمان للصحافة والأنباء والنشر.

12. محمد الصالح البوعمراني. (2004). *دراسات نظرية وتطبيقية في علم الدلالة العرفاني* (المجلد 1). صفاقس: مكتبة علاء الدين.

13.محمد غاليم. (1987). *التوليد الدلالي ما بين الدلالة والمعجم* (المجلد 1). الدار البيضاء، المغرب: دار توبقال للنشر.

14. محمد مفتاح. (1990). *مجهول البيان* (المجلد 1). المغرب: دار توبقال للنشر.

15. محي الدين محسب. (2017). *الإدراكيات، أبعاد ابستيمولوجية وجهات تطبيقية*. دار كنوز المعرفة.